رسالة إلى السيّد محسن جواد الأخ الصدوق

الكاتب

في يومٍ من الأيّام منذ قرون ثلاثة، كان في قريتنا كوثريّة السيّاد - حيث وُلِدَ السيّد محسنٍ جواد – مدرسةٌ خرّجت علماءَ أعلامًا كان لهم الفضلُ في نشر العلم في مختلِفِ أنحاء جبل عامل و خارجه، أمّا مدرستها في القرن العشرين فقد ظلّت حتى العقد السادس أشبهَ بالكتّاب غرفةً واحدةً ذاتَ معلّم منفرد، و كان الانتقال للعيش في النبطيّة و جوارها أمرًا مفروضًا على الأهل في ذلك الحين للاقتراب من المدرسةِ التي حُرموا هم منها، و هذا أوّل فرقٍ ملحوظٍ بين من يولدُ في مدينة تعدَّدت مدارسها و جامعاتها، و بين من يولد في قريةٍ نائيةٍ – و إن لم تكن نائية جغرافيًّا – لهذه الأسباب دخل السيد محسن كأبناء جيله من أبناء قريتنا و شبيهاتها دارَ المعلّمين الابتدائيّة، وسيلةً للعمل و لمتابعة الدراسة في الآنِ ذاته، بشقّ النفس، سارقاً الوقتَ للتعلّم، و هذه كانت حالنا جميعاً نحن البعيدين عن مراكز العلم، و ربّما من أجل ذلك و بسببه تميّز السيّد محسن في دراسته و في إتقانه لعمله ، فما لا يُحصَّل بالهيّن يصعبُ التفريطُ به...

لم نتزامل في مرحلةِ الدراسة، وإنّما تزاملنا في التدريس في ثانوية الصبّاح، قبل أن ننتقل وآخرين في العام الدراسيّ 1984-1985 إلى ثانويّة النبطيّة الرسميّة للبنات، لمّا صارتِ النبطيّة مركزَ المحافظة – وفي مراكز المحافظات ثانويّات البنات منفصلةٌ عن ثانويات البنين – وقُسِمت ثانوية الصبّاح إلى مدرستين، الصبّاح الأمّ للبنين، والجديدة للبنات. انتقلنا من مدرسة مكتملةِ التجهيزات إلى مدرسةٍ لم يُستكمل بناؤها، وخاليةٍ من أبسط التجهيزات، حتى الحديقة كانت من دون تراب؛ وصعَّب الأمر علينا، أنّ المدرسةَ الجديدةَ بُنيت في نقطةٍ كانت من أكثر النِقاط المحيطة بالنبطيّة تعرُّضا للقصف، في مواجهة التلال التي يتمركز عليها الإسرائيليون وعملاؤهم.

قلتُ وأقولُ الآن صدقاً، لو لم يكن الأستاذ السيّد مُحسن هو الناظر العام، الذي تولّى الأعمالَ الإداريَّة والتنظيميَّة والماليَّة كلّها بنزاهةٍ وتفانٍ ودقّة متناهيةٍ، وأناة لا مثيل لها، لما نجحتِ الثانوية الجديدةُ الفقيرة ماديًّا والغنيّة معنويًّا بأساتذتها، فأنا الطالعةُ من بين صفحاتِ الكتب ترى الأمورَ سوداءَ وبيضاء، مخلوقةٌ لأكون معلّمة لا مديرةً والناسُ من حولنا، قد غبّشت الحربُ الداخليُّة والتهجير والصراعات والأنانيّات والإحباطاتُ مناظيرَهم...

عملنا معاً أنا وهو والمُخلِصُون جميعًا من الزملاء فريقًا واحدًا متكاملًا، نتبادلُ الرأي ونتشارك في التخطيط.

عَرَفتُه من قرب مجسَّدا للحكمةِ التي علَّقها فوق مكتبه " أحبّكم إلى الله أنفعُكم لعياله" ، وكان الأنموذجَ الأمثلَ لما يجب أن يكون عليه المتدينُ الإنسانُ، القادرُ على التوفيقِ بين الظاهرِ و الباطن، كثيرُ الفعلِ، قليلُ التنظيرِ، لا تناقضَ بين قولِه و فعلِه، بين إيمانِه و ما يُمارسُه على أرضِ الواقع، و كان من السهل مقارنتُه بآخرينَ كُثر، يقولون ما لا يفعلون- كأنّهم لا يُصدّقون ما يقولون- متدينين من أهل الظاهرِ و حزبيين وعقائديّين و مناضلين كلاميًّا من مختلفِ الفئات تُناقضُ أفعالُهم أقوالَهم، يُنظّرون و لا يُطبّقون ما يقولونه على أنفسهم.

عَرَفتُهُ وعَرَفَه المحيطون به من الزملاءِ والأصدقاءِ والإداريين والطالباتِ وأولياء أمورهنّ إنساناً، وديعًا، ودودًا، خلوقًا، مهذَّبا، كاظمًا للغيضِ في أصعبِ الظروف وأشدِّها حلكةً.

كان لافتًا بالنسبة إليّ وإلى كلّ الذين عَرَفوه، أنّه كان فضلًا ع اللياقةِ والتهذيبِ، محترِمًا للمرأةِ قولاً وفعلاً وممارسةً، صديقةً وزميلةً وتلميذةً وزوجةً وابنةً، وما اختيارُه لزوجتِه الطبيبةِ المحترمةِ، ونمطِ حياتيهما معاً إلّا الدليلُ العمليّ على ما نقول، كان مؤمنًا بالصداقةِ بين الرجلِ والمرأةِ إن كانا نظيرَيْنِ محترَمين، ومن كان يحترمُ نفسَه ويثِقُ بها، بإمكانِه أن يحترمَ الآخرَ، رجلًا أو امرأة، إن كان أهلًا للاحترام.

كان يعرفُ ما لَه وما عليه، وطبَّق ذلك عمليًّا، نرى ذلك في وجوه أهله وأولاده وأصدقائه وتلاميذِه وعارفيه.

الكتاب:

إلّا الكتاب:

أغربُ ما في الأمر أننا طيلةَ مرحلةِ الزمالةِ في الثانويّة و ما بعدها، كنّا نتحادثُ " كثيراً عن الخاصّ و العامّ، و عن المدرسةِ ، و التعليم الرسميّ الوحيدِ المؤهَّلِ أنْ يبنيَ وطنًا حقيقيًّا، أبناؤه مواطنون يحظون بفرص متساويةٍ في التعليم الذي يجب أن يكونَ متاحًا للجميع كالماءِ والهواء؛ تحادثنا عن الجامعة بل الجامعات، و عن فلسطين و المقاومة، ونُكهة التعليم وأصواتُ القذائف تصمّ الآذان، و عن المتدينين و الحزبيّين و النِفاق الضاربِ أطنابُه في كلّ الأوساط، و عن الكتبِ التي نقرأها، أو نزوُّد مكتبةَ الثانويِّة بها...

إلّا كتابه هو...

أتساءل الآن لمَ لمْ أعرف عن دراستِه هذه شيئاً من قبل؟ لا أدري!

هل ألومك يا أخي وصديقي لأنّك لم تُطلِعني على أطروحتِكَ هذه من قبل؟

هل ألومُ الزمان أو الظروفَ التي لم تسمح لكَ بأنْ تكون ناقدًا أدبيًّا متميِّزا منذ مطلع شبابك كما تبين من كتابك هذا؟ وأنتَ صاحبُ اللغةِ الأدبيِّة السليمةِ الخاليةِ من العيوب، ولديك القدرةُ على قراءةِ ما وراء النصوص، وما وراء الكلام؟

لو أنني كتبت هذه المقدَّمة منذ ثماني سنوات، لقلتُ ذلك، لكنّني توقفت عن استخدام كلمة (لو) في ما أكتب وأقولُ و أفكّر، لأنّ ال " لو" تفسِدُ العيش، فما جرى قد جرى، و ما حدث كان يجب أن يحدث، فهذا هو الدور الذي قُدِّر لنا أن نؤدّيه في حياتنا، وأنْ

نعيش الحياةَ بحلوها و مرّها، إنْ هي الّا لحظاتٌ وتنقضي ويبقى ما خلّفناه وراءنا، و أنتَ قدَّمت و خلّفت الكثير في ما فعلتَ و أينما حلَلْت.

هذا الكتاب هو في الأصل رسالة ماجستير نوقِشت في العام 1980م، لكنّني مصرَّةٌ على تسميتها أطروحةَ دكتوراه، وهي فعلاً كذلك، وقد عَرَفتُ بعد أنْ قلتُ هذه الكلمات حين قرأتُها للمرّة الأولى، أنّ المرحوم الدكتور عبد القادر القطّ قد سبقني وأسماها أطروحةً قبل مناقشتها.

هذه الأطروحة تناولتْ بالقراءةِ و التحليل و النقدِ البنّاء روايات كاتباتٍ عربيَّاتٍ من سوريا و لبنان في العقدَيْن الأوَلين من النصف الثاني من القرنِ العشرين الميلاديّ، أسِفتُ أنّني لم أعرفْ بأمرِها من قبل، فقد خُيِّل إليَّ و أنا أقرأها أنَّ مقاطع منها قد وردت في أطاريحَ شاركتُ بمناقشتِها، مأخوذةً من مراجعَ تناولتِ الروايةَ اللبنانيَّة أو العربيَّة، أشعر الآن أنّها مستلَّةٌ من أفكارٍ و استنتاجاتِ السيّد محسن في هذه الدراسة، من دون أن يكون في متناولي في هذه اللّحظات دليلٌ يحسم هذا الأمر، و لو كنتُ اطَّلعت عليها من قبل، لما فاتتني الإشارةُ إلى ذلك، أو التنويه على الأقلّ بأهميَّة هذه الدراسةِ – الأطروحةِ وأسبقيّتها.

كان مهمًّا ربطُه بين سوريا ولبنان في مجال الدراسة لاشتراك البلدين في مصيرٍ واحد في مختلِف العصور، ولإيمانِه أنّ الصلاتِ الأدبيَّة امتدادٌ للصلاتِ التاريخيَّة بين البلَدين، لا سيّما أنّه ابن جبل عاملة، الذي ضُمَّ إلى دولة لبنان الكبير من دون أنْ تهتمَّ الدولةُ الناشئةُ به، وظلَّتْ تعامله كابنِ جاريةٍ غيرِ محظيَّةٍ، مفروضٍ عليها تبنّيه.

وأنا أقرأ هذه الدراسة تساءلتُ أكثرَ من مرّة إنْ كان احترامُه للمرأةِ مَرَدُّه أنّه درس محاولاتِها لإثبات ذاتِها إنسانةً، أم أنّه اختارَ أدبَ المرأةِ موضوعاً لدراسته لأنّه يحترمُ المرأةَ، أم تعاضدَ الأمران فأنتجا هذا العملَ النقديَّ القيِّم، الذي يُبرزُ ثقافتَه وصوابَ رؤيتِه إلى الصراعِ الاجتماعيّ، وفصاحةَ لغتِه، وقدرتَه على التحكّم بها، من دون ارتكابِ أيّ خطأ.

إنّ أهمّ ما يميّز السيّد مُحسن جواد باحثاً، كما يتبيّن من هذا الدراسة، هو النزاهةُ و الموضوعيُّة؛ النزاهةُ في ردِّ المعلومات إلى مصادرِها و مراجعِها، و هذا ما يفتقرُ إليه كثيرون من أصحاب الأطاريحِ و الباحثين؛ كدتُ أقولُ في هذا الوقت، لكنّني في

اللحظة التي كتبتُ فيها هذه العبارة تذكّرت علماً من الأعلام المشهورين في النصف الأول من القرنِ العشرين، كنتُ قد أشرتُ إليه في نقدي لمراجع كتابي " المرأةُ الأندلسيَّةُ مرآةُ حضارةٍ شعَّتْ لحظةً و تشظَّتْ"، نقلَ من أحدِ المصادرِ المخطوطةِ من دون أنْ يُسمَّي مصدره، و لمّا طُبِع الكتابُ بعد وفاةِ الناقلِ، ظهرَ أمرُ النقل.

أمّا الموضوعيُّة التي تُمَيِّزُ عَمَلَ السيِّد محسن فهي واضحةٌ في أنّه لم ينطلق في تقويمه لأعمال الروائيات من خلفيّته الدينيّة والاجتماعيّة، و كان لافتاً في تعليقه على أقوال الذين امتدحوا إملي نصرالله للحشمة البادية في سطور كتابها قوله: " إنّ هذه الأحكامَ أخلاقيُّة، و لا يمكن للحكم الأخلاقي أن يرفع أو يخفض من قيمةِ العملِ الأدبيّ، فقد تكون العفّة في روايةٍ رديئة من الناحية الفنيّة، و لا يمكن الثناء على الأعمال الأدبيّة أو الغضّ من شأنِها من أجل العفِّة وحدها، و يقول: إنّ العفّة في أسلوب الكاتبة و تصويرها لمواقف شخصيّاتها نابعٌ في المقامِ الأول من طبيعة شخصيّات الروايات و تقاليد البيئة التي كانت تعيش فيها..."

إنّ ما يُميّز هذه الدراسة أنّها أوّل دراسةٍ شاملةٍ عن أعمال الروائيّات المذكورات؛ انطلق في دراسته مفترضًا أنّ الرواية النسائيّة تتميّز بخصائصَ تنبع من جنس كاتبتِها، واللافتُ فيها أنّ صاحبَها ناقدٌ أدبيٌّ بامتياز، واضحةٌ قدرتُه على الغوصِ في ما وراء السطور، والردّ بموضوعيِّة على النقّاد الذين كانوا يُعدّون في العقدِ السابع من القرنِ العشرين آونةَ إنجازِه لدراسته من أعلامِ النقدِ الأدبيّ، مُفنِّدا آراءهم، أو ينقضُها، أومشيرًا إلى تسرّعهم في إبداءِ الرأي قبلَ أن يتثبتوا من صِحَّةِ ما يقولون، مبديًا رأيه الخاص الذي يُصحّح آراءهم، أو ينقُضُها، وهذا ما دفعني إلى القول " إنَّه ناقد أدبيٌّ بامتياز".

من ميزاتِ هذه الدراسة أيضًا أنّها متأنِّية مكتملةُ العناصر المنهجيّة، من دون استعارةِ تفاصيل أحدِ المناهج الغربيّة، وتطبيق ما جاء في الأطروحةِ عليه، وكأنّ الدارسَ يحلُّ عملًا رياضيًّا بناءً على معادلةٍ مشتركة.

في دراسته لروايات إملي نصرالله مثلاً، التي يعود تاريخها إلى الحقبة الممتدّة من العام 1962 إلى العام 1980 تاريخَ كتابة الأطروحة، يمتدح أسلوبَها الشعريَّ الرقيق الذي يقترب فيه النثر من إبداع الشعر، و يرفضُ رأي النقاد الذين اعترضوا على

أسلوبها هذا، لأنّ هذا الأسلوبَ برأيه قد أعانَها على رسم الأجواء الرومانسيّة التي تقعُ فيها أحداثُ الروايةِ وتتحرُّك شخصيُّاتها؛ وردًّا على من قال إنّ الكاتبة لأنّها امرأة اعتمدت على التزويق الإنساني' يُعقّب بقوله، إنّ ذلك الأسلوبَ كان أيضاً موجودًا لدى الرجال، فالظرفُ كان هو نفسه بالنسبةِ إلى الفريقين.

كان لديه الثقة برأيه أن يقترحَ على الكاتبة حذف صفحاتٍ كانت قد أضافتها على الطبعةِ الثانية من روايتها الأولى. أو ان ينتقدَ تدخّل الكاتبة بلسان الراوية في أحداث الروايةِ أحياناً، لأنّه يرى أنْ لا مسوّغ لهذا التدخل، أو يمدح أسلوبها الوصفيّ في مكانٍ ما، أو يشير إلى أنّها لم توفّق في مكانٍ آخر؛ وردًّا على من ينتقد الشاعريّة في رواياتها يقول: إنّ الشاعريّة قيمةٌ أساسيّة في رواياتها، و يسوّغ ذلك بأنّ الأسلوب الشعريّ مناسب لمواضيع رواياتها الأربع الأولى، في حين أنّ روايتها الخامسة، التي تتحدّث عن الحرب الداخليّة، أقلّ شاعريَّة، لأنّ طبيعةَ الموضوع لا تقتضي مثل هذا الفيض الشعريّ، و لا تتطلّب عباراتٍ زاخرةً بالإيحاء.

و إذا كان قد اختار روايات إملي نصرالله التي تعالج موضوع المرأة، فإنَّ اختياره لروايَتَيْ غادة السمّان على الرّغم من أنّها لم تقتصر فيهما على معالجة موضوع المرأة، فلأنّ المرأة هي الشخصيّة الرئيسيّة في الرواية؛ وفي مقارنته بين أبطال روايات إملي نصرالله وغادة السمان استخدم المنهج المقارن، من دون الكثير من الادعاء و التنظير، ببراعة و تؤدةٍ، مرجَّحا نظرة إملي على نظرة غادة في ما يتعلّق ببناء الرواية، ممتدحاً الحبْكةَ المتقنةَ الإحكام، والمهارةَ في ابتكار الشخصيّات و رسم مسرح الأحداث في روايتي غادة، مفندًا آراءَ النقاد الذين تناولوا روايات غادة السمان، و مقدَّما رأيه الخاص الحاسم و القاطع، الذي يُظهره ناقداً أدبيًّا، متجاوزًا آراء النقاد المشهورين، قادراً على اكتشافِ الرموز، وعلى التأويل.

أما في دراسته لروايات ليلى بعلبكي، فقد انتقد الأسلوب المتكلّف في معظم الأحيان، و تصنّعها في الكتابة وفي بعض الأوصاف، ويؤكّد أن معظم التفصيلات التي تتضمّن وصفاً لمشاهد الجنس، تبدو مقحمةً إقحامًا على الحوار، من دون أنْ تفرضها الضرورات الفنيَّة، فالحُرّيُّة في نظر ليلى بعلبكي كما يرى ليست أكثر من دعوةٍ إلى الانحلال الأخلاقي، وهل الحريّة معناها أن لا يتعارف الفتيات و الشبّان إلا

في البارات و علب الليل؟ وهل يعني رفعُ الظلم عن المرأة أن تنتقل بطلات ليلى بعلبكي من ذراع إلى آخر من دون أيّ مسوّغ فنّيّ؟ ، و خوفاً من أن يُتَّهم بالتعصّب يقول: " سيكون حكمنا على استخدام الجنس في الرواية حكماً فنيًّا بحتًا لا يتأثّر بالمعايير الأخلاقيّة المعروفة"... مع ذلك هو يشير إلى مهارة الكاتبة في الربط بين الطبيعة و مراحل معاناة الشخصيّات، و يرى أنّها استخدمت ببراعةٍ و ذكاءٍ قاموسَ الطبيعة "، حتى كانت عبارات الخريف و الرعد و المطر كأنّها الإيقاع في المقطوعة الموسيقيّة، أو كأنّها الفاصلة أو اللحن المرافق للأغنية، أو كأنّها الموسيقى التصويريّة التي ترافق الأبطال في الأفلام"...

وفي مقارنته بين كوليت خوري وليلى بعلبكي يرى أنّ كوليت خوري كانت أكثر تجسيداً لفكرة الرفض والقلق لدى الفتاة الشرقيّة في أوائل العقد السادس من القرن العشرين؛ أمّا الشخصية في أدب ليلى بعلبكي فلم تكن على قدرٍ من الجدّ يصح معه قبولُها كشخصيّة قصصيّة تحمل قضيّة ذات شأن. ويرى أنَّ كوليت خوري لم تكرّر مشاهدَ الجنس و لم تستخدم عباراته، كما فعلت ليلى بعلبكي لا سيّما حين استخدمت هذه الأخيرة الألفاظَ العاميَّة، أو التي تُشعِرُ القارئ بالاشمئزاز من دون أن يكون لها أيُّ مسوِّغ فنّيّ. أمّا كوليت خوري فإنّ تصويرها للمشاهدِ العاطفيّة ينطوي على كثير من الإيحاء...

يرى كذلك أنّ أدب كوليت خوري وإن كان أرقى من أدب ليلى بعلبكي، إلا أنّه مثله يُعدُّ خروجًا على المألوف في زمنٍ كانتِ المحافظة طابعَ المجتمع والأدب على حدٍّ سواء...

يقدّم نماذج عن الالتزام السياسي في الرواية النسائيّة في ما كتبته كلٌّ من ليلى عسيران و بلقيس الحوماني، اللتين تنظران كما يرى من زاوية واحدة إلى الحرب و الاحتلال و المقاومة، و تتناولان مرحلة واحدة من مراحل النضال الفلسطيني في بداياته، و ترسمان جيلاً تُعقد عليه الآمال الكبار هو جيل المقاومة، وتعتنيان برصد انصهار هذا الجيل بفكرة الثورة، ورصد تحوّله من شباب حياديّ إلى نماذج ثوريّة تحمل همّ القضيّة. ونراه يشير إلى الحضور النسائي الفاعل في روايتيهما وكذلك إلى المزالق التي وقعت فيها الكاتبتان وهي الحماس المفرط، والاستطراد والمبالغة والنبرة

الخطابيّة، والتأثر بأشكال التعبير الإعلاميّة، والسيطرة لجوّ المثاليّة والبطولة الدائمة، ويعيد ذلك إلى أنَّ الكاتبتين تتحدثان عن تجربة راهنة، لم تدخل بعد في حيّز التاريخ القريب، الذي يتيح للكاتب أن ينظر إليها بشيء من التجرد. [وهذا صحيح لأنّ نظرتنا نحن اليوم إلى تلك التجربة، تختلف اختلافًا جذريًّا عن نظرتنا إليها منذ أربعين عاماً ونيف].

وفي كلامه على الرواية النسائية والحرب اللبنانيّة من خلال روايتَي غادة السمان " كوابيس بيروت" وإملي نصر الله "تلك الذكريات"، يمتدح غادة السمّان في هذه الرواية، التي تبدو فيها موهبتها الروائيّة، و ذهنُها المتفتّح الخلّاق و خيالُها الذي يحلّق بعيداً حتّى يبلغ مشارف الحقيقة، وقدرتُها على خلق الرموز التي تخدم فكرتها؛ و يلتفت إلى أنّ غادة لم تُغفل بعض الالتفاتات الرومانسيّة، كما أنها لا تكفّ من الابتكار و التجديد، و لديها القدرة على أن تبعث الحياةَ في الجماد، و تصوغ من المعنى المجرّد شخصيِّات تتحرّك، ممّا يعكس الواقع بمقدرةٍ فنّيِّة عالية، و يصف رواية " كوابيس بيروت" بأنها من الأعمال القليلة التي تستحق أن توصف بالإبداع... وعن "تلك الذكريات" لإملي نصرالله التي تتحدث فيها عن الأثر السلبي للحرب على الصعيد الاجتماعيّ، و التي سكبت فيها معاناتها للحرب و انطباعاتها عنها في شكلٍ أدبيّ هو نوعٌ من السيرة الذاتيّة و الانطباع الوجدانيّ، يرى في بعضٍ أجزاء الكتاب تسجيلًا واقعيًّا للأحداث على صورة مقاطعَ من الشعر المنثور، مؤكّدا أنّ الروايةَ هي سيرةُ المؤلفة الذاتيّة، لذلك هي مزيجٌ من الواقعيّة و الرومانسيّة، و يرى أن الزخم الشعريّ الذي كان سمةَ روايات إملي نصرالله الأربع الأولى، أصبح أقلّ غزارة ووفرة في هذه الرواية، لأنّ طبيعة الموضوع تقلّل من فرص الانسياق وراء سحرِ الكلمات المجنّحة؛ فضلًا عن أن الكتابة عن الحرب تقترب من الكتابة الملتزمة، وتخلق للكاتب عقباتٍ شكليَّة قد لا يسهل تجاوزها.

دلال عباس

نهار الأربعاء في 22 نيسان

من العام 2020 م.

شعبان 1441 ه 29.